

المصادر الأجنبية لأدب متى

تتيح حياة متى ونشاطها الأدبي جوانب عديدة لمن يهوى البحث، ويرغب في الدرس، ويتحمل معاناته وأهواله.

ثمة جانب لا يقل أهمية في حياة متى، وأعنى به المصادر الأجنبية لأدب متى وثقافتها، ماذا عرفت من لغات، وإلى أي حد أجادتها، وأين يتجلى ذلك في كتاباتها، وفي هذا الجانب - ولا أعرف أحداً عرض له من قبل - أحاول أن أسهم بشيء يجيء خطوة أولى على الطريق.

كان أول لقاء لمتى مع اللغات الأجنبية في سن مبكرة جداً، ولانعرف متى بدأت تتعلم الفرنسية، ولكنها تذكر لنا أنها قرأت للمرة الأولى وهي في العاشرة من عمرها قصة «أبرص بلدة أووستا» باللغة الفرنسية، بقلم إكزافييه دي ميستر، وأعجبت بها، واستمرت في دراستها لها حتى أدخلها أبواها، وهي في الثالثة عشرة من عمرها، داخلية مدرسة راهبات الزيارة في عين طورة في لبنان، حيث قضت أربع سنوات، ١٨٩٩ - ١٩٠٣، وانتقلت بعدها إلى مدرسة انراهبات اللعازريات في بيروت، وأمضت بها عاما واحداً عادت بعده إلى الناصرة في فلسطين حيث يقم أبواها.

ولا يحتاج المرء إلى جهد كبير ليدرك أن لغة التعليم فى كلتا المدرستين كانت الفرنسية لجميع المواد، ماعدا العربية بالطبع، وأن التلاميذ كانوا يدرسون إلى جوارها شيئا من اللاتينية، ثم الإيطالية أو الإسبانية، أو هما معا، فقد كانت سوريا إذ ذاك منطقة نفوذ فرنسية فى المجال الثقافى، وكانت مدارس الإرساليات الكاثوليكية، وتدين بالولاء المباشر للفاثيكان فى روما، تعنى بلغات كبريات البلاد الكاثوليكية فى أوربا: فرنسا وإيطاليا وإسبانيا على الترتيب.

ويضم كتاب «سوانح فتاة» لمتى ونشرته عام ١٩٢٢، مجموعة من المقالات نشرتها فى صحف مختلفة، ومن بينها مقالة بعنوان «عائدة تنذكر»، وعائدة هو الاسم المستعار الذى كانت توقع به مقالاتها أحيانا، وهى عن ذكرياتها تلمينة فى مدرسة راهبات الزيارة، ونعرف منه أنها كانت تحب الجرى واللعب والضحك، ولكنها وحيدة الروح، كثيرا ماتنزه إلى أطراف الساحة، تنظر إلى البحر البعيد، وتتأمل زرقته الفيحاء، واستدارة الأفق المحيم عليها تتمتع بجمال الطبيعة، وتمتس نحوها بالهية والجلال.

وأما كانت تحسن ركوب الخيل على حدائث منها، وقطعت على ظهر الجواد سهولا وجبالا، بين الأشجار، وعلى الصخور، وحول القمم.

وأن صداقة حارة تكونت بينها وبين إحدى الراهبات على مرور

الأيام، ذكّأها غزارة العاطفة وحدة الذكاء عند كليها، وكانت هذه الراهبة وحيدة بين لداتها وحدة عائلة بين التلميذات .

وأنا كانت تعمل فى المدرسة مرغمة، تحت مراقبة راهبة لاتبها، تجهل أساليب التعليم، وكل فضائلها أنها ابنة مارشال فرنسى، وكانت «عائدة» توجه إليها كل كلمة حواها كتاب الصلاة فى هجو الشيطان واحتقاره .

وفى الدير خلال أعياد الميلاد، ترحل الفتيات إلى أهاليهن ماعداها، فتقضى وقتها فى غرفة الموسيقى المنفردة، فى أطراف الحديقة، تخيم عليها الأشجار ذات الفصون العارية، تعزف على البيانو.

غير أنها لم تقدم لنا ولالمحة واحدة عما درست أو قرأت، أو أحببت أو كرهت، من مواد تعليمها .

وفى عام ١٩٠٥ عادت إلى الناصرة، وخطبت لابن عمها، وتكشفت عن شغف بالعلم لاحد له، وبدأت تنظم أشعارا باللغة الفرنسية .

وبعد ذلك بعامين، فى ١٩٠٧، تنزح الأسرة إلى مصر، وكانت فى تلك الفترة الباكرة من يقظة العالم العربى مهبط المفكرين، وموئل المناضلين، وملاذ المضطهدين والحائفين، وغاية الذين ضاقت بهم فى بلادهم سبل العيش والحياة .

وفى القاهرة بدأت متى تدرّس اللغة الفرنسية لبعض بنات العائلات؛ إذ كانت لغة الطبقة العالية، والإقبال عليها بينهم كبير، رغم الاحتلال البريطانى الجاثم على العقول والقلوب، لأن المزاج المصرى، فيما يرى يحبى حقى، كان فى ذلك العهد لا يحس بالغربة إذا اتصل بفرنسا، كما يحس بها إذا اتصل بإنجلترا، وهو أثر من تقارب التيارات الثقافية بين شعوب البحر الأبيض المتوسط، وساعد عليه أن بعض كتاب فرنسا لعبوا أدوارا سياسية فى حياة بلادهم، وأصبح اسمهم رمزا للحركات التحررية، فذاع صيتهم فى مصر، مثل فيكتور هيجو، وترجم له حافظ إبراهيم البؤساء، أما المنفلوطى فلم ينقل إلا عن الأدب الفرنسى.

يتجلى تمكنها من اللغة الفرنسية وأدبها فى باكورة إنتاجها، إذ كان ديوانها الأول «زهرة حلم» «Fleurs De rêve» باللغة الفرنسية، وصدر فى القاهرة عام ١٩١١، وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها، وكان بتوقيع إيزيس كويبا، وإيزيس آلهة الخصب والأمومة عند المصريين القدماء، وكويبا كلمة لاتينية تعنى الغزارة والوفرة.

تغلب على ديوان «زهرة حلم» نزعة رومانسية حادة، تتجلى فى الشغف بالطبيعة، وسيطرة الكآبة والحزن على قصائده، وصوّرت فيه انطباعها عن الطبيعة والحياة، والكون وأسراره، بما يتلاءم ومشاعر فتاة يافعة، فى بساطة متناهية، وسذاجة حلوة.

يتجلى تأثر هي واضحا في ديوانها باثنين من كبار شعراء الرومانسية الفرنسية، أولهما لامرتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩)، وكان ذا طبيعة مثالية، رقيقة ونبيلة، صلب العود، رجلا بمعنى الكلمة، بعيدا عن العواطف المتدنية، وأمضى حياته من أجل الجمال والخير، وله من دواوين الشعر «التأملات» و«الأنغام» و«جوسلان»، ويتميز إبداعه بالضباية والغموض، وهما صفتان يتحان للانفعالات أن تعبر عن نفسها في حرية أكثر، وأهدت هي ديوانها إليه، وفيما بعد سوف تقوم مثله برحلة إلى إيطاليا، وسوف تؤخذ بما أخذ، من روعة الضياء، وسحر المياه المتدفقة، ووشوشة النوافير في الميادين، وسوف تكتب مقالها: «نشيد إلى ينابيع روما»، وتشره في مجلة الهلال [ج ٣٤، أول يناير ١٩٢٦].

وكان الثاني ألفرد موسيه (١٨١٠ - ١٨٥٧) وكان متقد الذكاء، خياليا ساحرا، سار في الاتجاه الرومانسي فترة قصيرة، ثم فجع في غرامه، فأخذ يكتب أشعارا حزينة رائعة، وكان القانون الوحيد الذي يلتزمه في إبداعه أن يخلص لمشاعره، ومن ثم فهو يزدرى الصنعة في الفن مهما كانت عالية. وعاش طفلا مدللا قبل أن يكابد ألم العشق الذي جعله أكثر رزانة، دون أن يغير من طبعه، ومرهف الحس محبا لنفسه، وعلى استعداد للحب، وشديد النهم أن يكون محبوبا، متقلبا في هواه، شديد الحماسة، يطيب له أن يتمتع بالحياة، ولا يرتوى من الملذات قط.

أما الآخرون فهما اللورد بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) وشيلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢)، وهما من أعلام الرومانسية الانجليزية، وأتصور أن تأثيرها بهما في هذه المرحلة من حياتها، كان عن طريق قراءة أشعارها مترجمة إلى الفرنسية، إذ لا أتصور أن دراستها للغة الانجليزية بعد وصولها إلى مصر كانت كافية، لضيق الوقت، أن تتعلمها وتحيدها، وتقرأ بها شعرا، ويترك في أعماقها وإبداعها صدى.

يبدو تأثير مَيّ بهذه الباقية من الرومانسيين واضحا في اندماجها مع الطبيعة، وهروبها إليها، وجوح خيالها، وسيطرة الأحلام على مشاعرها، وتغنيها بمرايع طفولتها في الناصرة، ومهابط صباها في جبال لبنان وأوديته وغابته وشطآنه، وخطاها على سفح المقطم وفوق صفحة النيل في مصر، وجاءت القصائد في أوزان الشعر الفرنسي الكلاسي، أما المقطوعات فكانت ضربا من النثر المشعور.

أحيط الديوان عند صدوره بهالة من الترحيب والتبجيل، فقرظه أنطون الجميل في مجلة الزهور، والدكتور شبلي الشميل في مجلة المقتطف، وأهدى لها خليل مطران بمناسبة قصيدته: «إلى مَيّ».

وفيا بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٥ نشرت مجلتا الهلال والمقتطف عددا من هذه القصائد مترجما إلى اللغة العربية، وقد تكون له ترجمات أخرى لما تكتشف، وفي عام ١٩٥٢ قام الدكتور جميل جبر بترجمة بعض قصائد الديوان، وضم إليها ما نشرته الهلال والمقتطف، وأعطاه عنوان: «أزاهير حلم»، تأليف مَيّ زيادة، ولكن ما نشره ليس كل

قصائد الديوان، ولا حتى جله، إذ بقي جانب من قصائده لم يترجم بعد.

وبعد هذا الديوان لم تعد مَيّ تكتب باللغة الفرنسية، إلا بعض المقالات والتعليقات بين حين وآخر، وإنما اتخذت من العربية أدواتها، فالأديب يبدع ليقرأه الناس، والقارئون بالفرنسية في مصر والعالم العربي قلّة، أما قراء العربية فهم الكثرة الغالبة، ومن المؤكد أنها لو قصرت نشاطها على اللغات الأجنبية لما بلغت هذا القدر الذي حققته من الشهرة والخلود.

ولكن مَيّ بعد أن تركت الفرنسية لغة أداء لم تتخل عنها مصدر تثقيف، فنجدها معجبة أشد الإعجاب بالكاتب القصاص الفرنسى بيير لوتى (١٨٥٠ - ١٩٢٣)، وطالما عاشت فى الصفحات الجميلة من كتبه، فيما تقول، وطالما استسلمت لسحر بيانه، وذات يوم حملت كتابه «موت أنس الوجود» وطالعت بعضا من فصوله فى المتحف المصرى، على مقربة من قاعة المومياء، بهدوء وتأمل، وهذا الكتاب كتبه لوتى عام ١٩٠٧ وأهداه إلى مصطفى كامل، وكان مثله ابنا روحيا لدام جوليت آدم، وحبذت الدعوة التى ارتآها على أيامها بعض الكتاب من تعريب الكتاب، وبقية مؤلفات لوتى الأخرى عن الشرق الأدنى. ومع أنها تراه صديق الشرق، لا ترى شبيبتنا فى حاجة إليه، وإنما هم أحوج إلى كتب أساتذة أقبوا، يكتبونها ويستحثونها على الرجاء، ويثون فى نفسها اليقين، فترجمة كتبه خطيرة لمن

لا يعرف أن يتسلى بسحر لوتى تسلية، ويعجب ببيانه دون أن يحسب قوله درسا وأمثلة.

فهى تقرؤه بإعجاب، ولكنها لا تتردد فى الحكم عليه بأنه كثير النواح والشكوى والتنمّر، يؤذى من لا إمام له بآداب الغربيين، أو من كان قليل الإمام بها، كما كان قبله روسو، ناصب المناحات الكبرى ببلاغته العميقة الملتبّة، وشكاواه الخزينة المؤثرة (مجلة المحروسة، عدد الثلاثاء، ٢٦ يونية ١٩٢٣).

غير أن الحق ليس مع هتى، وكل ما هنالك أن يبهر لوتى لم يكن رومانسيا خالصا، وإنما احتفظ بأفضل ما فى الأدب الواقعى من عناصر، وحلّق فوق المذهب الطبيعى، ويراه قومه من كبار المصورين فى الأدب الفرنسى، ويضعونه إلى جانب شاتوربريان، وإنتاجه ضخّم جدا، يملأ ثلاثة وسبعين مجلدا، من القصص والخواطر والرحلات، فقرآته هتى وهى رومانسية الشعور والباطن، وإن لم تؤمن بها نظرية واتجاها، فلم ترفيه إلا هذا الجانب البكائى الخزين.



وفيا بعد سوف يحطفى طه حسين بلوتى احتفاء شديدا، وأراه وقع على اسمه فى منتدى متى بدءا إذ كان بالغ الذكاء فى التقاط مادته وثقافته من أى مكان يرد، ومن أى كلمة تصل سمعه، ثم مضى مع فكر الكاتب الفرنسى سائحا حين تمكن من الفرنسية وأجادها.

كذلك تأثرت متى في كتابة الرسائل، وما أكثر ما كانت تكتب منها، بدمام دي سفينييه (١٦٢٦ - ١٦٩٦) وكانت هذه أحد ثلاثة شهرها بكتابة هذا النوع الأدبي، شيشرون في القديم، وهى وفولتير في عصرنا الحديث. ونشرت متى عنها دراسة في مجلة المقتطف، بولية ١٩١٨، أتت فيها على حياتها وأدبها وعصرها، لأنها لاتذكر إلا ويذكر معها القرن السابع عشر، وفيما أرى أنها اختارت هذه السيدة لأوجه شبه كثيرة كانت بينها، ليس من الضروري أن تحيء وليدة درس وبمحت، وإنما قد تنبثق عفوا من الأعماق إلهاما ورضى.

ذلك القرن شهد عطاء الفكر والأدب الفرنسى، إنه عصر لويس الرابع عشر، وعرف صالون دي ومبويه، سيدة عظيمة كانت على جانب عظيم من العلم والذكاء، تستقبل زائريها من كبار القواد، وأعظم الأشراف، ومشاهير الشعراء والكتاب، فى غرفة دخلت التاريخ تحت اسم «الغرفة الزرقاء» وفيها كانت تدور المباحثات حول موضوعات أدبية ولغوية واجتماعية، وإلى جانبها صالونات أخرى شهيرة، مثل صالون مدام دي ستال وصالون مدام جوفرن.

أليس هذا هو ما كان يحدث فى منتدى متى؟ كانت مدام دي سفينييه تحتلط بالأعيان والأشراف، وتراقص الملك، وتلتقى بكثيرين من مدعوى البلاط، ولكنها دخلت التاريخ بالعديد من رسائلها البليغة، تخطها لابنتها بقلمها الرشيق، أو إلى أصدقائها العديدين، تصف لهم كل مايجرى فى الصالون أو فى باريس.

ولا تقف متى عند حد الإعجاب بها، وإنما تقارن بين شيشرون وفولتير ومدام سفينييه، وترى الأول مشرعا وخطيبا، والثانى باحثا ومفكرا، والثالثة امرأة لم تكن متفوقة فى فكرها، بل فى شعورها، وذلك فيما يقول البعض أعظم نبوغ وأفضل عبقرية.

إن متى هنا تصف نفسها!

وقد قرأت كتاب التأمّلات لفكتور هيجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥)، وتنقل عنه قوله: «إن الكلمة كائن حى»، وأوجزت حكايته: «إمبير حلوا: رمز الشيبية المعذبة» و عرضتها فى مجلة الرسالة (العدد ٩٩، ١٧ مايو ١٩٣٥) مع أنها أقل كتاباتها ذيوعا، لأنها رأتها أكثر ماتكون انطباقا على حالة طائفة من الشبان فى عصرها، وفى بلادنا، مع اختلاف نوع الحافز لانعدام الغرام.

وحين درست عائشة تيمور شاعرة الطليعة، أرادت أن تقدم وصفا للحياة فى قاهرة القرن التاسع عشر حيث عاشت الشاعرة، وهى أيام لم تعشها متى، إذ صدر كتابها عام ١٩٢٦، وكانت هناك أشياء كثيرة قد تبدلت، نقلت لها وصفا دقيقا مفصلا عن كتاب اكزافيه هرنييه «من القسطنطينية إلى القاهرة» و كتب رحلته هذه عام ١٨٤٥ - ١٨٤٦، وكان عضوا فى الأكاديمية الفرنسية، يقول:

«فى الشوارع والساحات تبصر أخلاطا من الثروة والفقر، أناسا يرتدون الأثواب النفيسة، وعليهم دلائل النعمة والرخاء، وآخرين

يرتدون الأطمار البالية، وعليهم دلائل الذل والشقاء. ولكن رغم مشهد الفقر والمرض عند الشعب فإن شوارع القاهرة لا توحى بالأسف والخبية اللذين يشعر بها المسافر في الآستانة ذات المنظر الضخم من الخارج، المحزن في الداخل. نعم إن أكثر الشوارع مظلمة ملتوية متشابكة الواحد في الآخر كأنها مجاهل التيه، يعترضها هنا وهناك ممرات خفية، وغاية ما يسهع عابرها أن يستسلم لحكمة دابته وثقافتها على أنها نظيفة يتعهدونها بالكفس والمرش المنتظم، وبدلا من بلاط الآستانة الشنيع، وتلك السلاالم الحجرية في غلظة وبيرا، لا تجد هنا إلا أرضا مستوية صلبة، نسير فوقها بلاعناء. أما المنازل القائمة على جانبي الشارع فهي في الغالب أشق من بيوت عاصمة تركيا، وأتقن صنعة. ففي كل وقت تبصر العين الواجهة المزخرفة بالنقش العربي، أو النافذة ذات المشبك الخشبي الدقيق الفن، الأنيق التفاصيل، فيكاد المرء يفتخر لأجلها الغيرة التي أقامت هذا الحاجز الدقيق بين داخل المسكن وتطلع السابلة».

وإذا أرادت أن تصف بيت عائشة التيمورية من الداخل اعتمدت على وصف منازل الطبقة العليا في ذلك العهد وحتى أوائل القرن العشرين، كما تقدمه نية سليمة NIYA SALIMA وهو الاسم المستعار الذي كانت تكتب به زوجة حسين رشدي الفرنسية، أحد رؤساء الوزارات في تلك الأيام، ولها كتابان باللغة الفرنسية، أولهما: «حريم مصر ونساؤها المسلمات» والآخر رواية حملت اسم «المطلقات»،

وطبعا فى مصر عام ١٩٠٧، وكانت هدى شعراوى أعارتها الكتابين، وأطرتها: إنها أصدق ما قرأت من نوع هذه الكتب فى وصف العادات المصرية، وأكثر إنصافا، وأقربها إلى الواقع.

وهى تعرف المشرق الفرنسى كليمان وار (١٨٥٤-١٩٢٦)، وكتابه «تاريخ الأدب العربى»، وصدرت طبعته الأولى فى باريس عام ١٩٠٢، وكانت تملك الطبعة الثانية منه، وصدرت عام ١٩١٢، وهو سفر جامع لتاريخ الأدب العربى منذ الجاهلية حتى أيام المؤلف، ولما يترجم إلى العربية، ولكن أحمد حسن الزيات اتكأ عليه كلية فى كتابه «تاريخ الأدب العربى»، وقد التقطت من خاتمته لتبدأ بها تعليقا جيدا على كتاب «حضارة مصر اليوم»، ونشره قسم الخدمة العامة فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة، وجاء تعليقا عليه فى مقالين متتابعين نشرتهما فى مجلة المقتطف. [جزء ٨٣ يولية ١٩٣٣]. وجاء فى هذه الخاتمة: «أما مانود أن تأخذ به اللغة العربية فى المستقبل فهو جلاء التعبير، وبساطة الأسلوب، فإذا يوم يحقق هذه الأمانة استطعنا التنبؤ بعهد زاهر للآداب العربية».

وهى حين تورد قوله هذا تلمح إلى ما فى قائمة الصحف والمجلات التى صدرت فى القرن التاسع عشر، وأوردها المشرق فى نهاية كتابه، من خطأ فى نسبة بعض الصحف إلى غير أصحابها، وفى التاريخ الذى عينه لصدور صحف غيرها.

وعبر كتاباتها، فى أمكنة مختلفة منها، نلتقى بأسماء فولتير،

وروسو، وديكارت، ومارمونتل، وغيرهم من أعلام الفكر الفرنسى، وترجمت عن الفرنسية رواية «رجوع الموجة»، ولكنى لم أهتد إلى مؤلفها، ولم تشر هى إليه فيما قرأت لها.

وكانت تكتب خواطرها فى لى بروجريه Le Progrez الفرنسية التى تصدر فى مصر، وفى إحداها وصفت أول لقاء لها مع أدبية لم تكن دونها قامة، ولكنها رحلت عن الحياة فى عنفوان شبابها، وهى ملك حفنى ناصف، وشهرت باسم باحثة البادية، وكانت هذه قد دعت متى إلى بيتها فى حلوان للتعرف عليها، وفيما بعد سوف تؤلف عنها مى كتابا كاملاً.



كان الرافد الثانى فى ثقافة متى الأجنبية هو اللغة الانجليزية، وبدأت فى دراستها بعد وصولها إلى مصر، وساعدها على التمكن منها فى وقت قليل الجو السائد فى مصر يومئذ، فقد احتل الانجليز مصر، وفى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ أعلنوا عليها الحماية، وحكوها مباشرة، وبدأت اللغة الانجليزية تأخذ مكانها فى مناهج التعليم، والإدارة، والحياة العامة، وذلك إلى جانب الاستعداد الفطرى عند متى نفسها، وولتقى بها متمكنة فى هذه اللغة، تكتب بها المقالات فى جريدة الإيجيپسيان ميل اليومية، بتوقيع خالد رافت، وفيها دخلت فى مناقشة حامية وطويلة، شغلت عدة مقالات بين أخذ ورد حول المجمع اللغوى والحاجة إليه، ومهمته، واللغة العربية ورقيا،

لزمت فيها جانب الدفاع عن العربية فى مواجهة سبيرو بك ، وكان إنجليزية من دعاة العامية فى مصر، ويرى العربية عقبة صعبة فى طريق تطور مصر حضارة وفكرا .

ومن الواضح أن إجادتها اللغة الإنجليزية لم تقف عند حد القراءة فحسب ، وإنما تجاوزتها إلى الخطابة بها ، ففى الحفل الذى أقامه طلبة قسم الآداب الإنجليزية فى الجامعة المصرية ، فى فندق شبرد ، فى إبريل عام ١٩١٨ ، تكريما لأستاذهم ، أسهمت فيه ، وكانت طالبة بالجامعة يومها ، بكلمة ألقته باللغة الإنجليزية ، ونشرت ترجمتها إلى اللغة العربية فيما بعد .

وكان الشاعر الإنجليزي تينسون (١٨٠٩-١٨٨٢) من أقرب الشعراء الانجليز إلى قلبها فيما بعد ، وإلى كل أدباء عصرها فى مصر فى الحقيقة ، وكان قد انتهى به الحال فى وطنه إلى أن ينعت بأنه أكبر شاعر فى وطنه وفى عصره ، كما كان يقال عنه «عند الخروج من المدرسة التصويرية أو الشعرية يبدو تينسون رائعا ، وكل الأشكال والأفكار التى ذبلت عادات إلى الظهور معه ، مصفاة ، ومعتدلة ، وتلبس ثوبا لغويا مذهبيا» . ويتجلى ذلك واضحا فيما تنقل عنه عبر كتابها ، فهى تأخذ قوله «إن قضية المرأة هى قضية الرجل ، وأن هذا وتلك عامودا العائلة ، فإن مال أحدهما وقصر واحتل وضعه ، تداعى سقف الأسرة ، وأنها صرح الاجتماع القائم على دعائم العائلة» .

وتقارن بين قصيدة له بعنوان «ملكة مايو»، وترأها من أرق قصائده، وأدلّها على شاعريته الخنون، وقالها بمناسبة عادة جرى عليها الإنجليز في بعض المقاطعات حين يختارون من بناتهم ملكة للربيع، وبين قصيدة قالتها عائشة التيمورية ترثى فيها ابنتها توحيدة، وترى ذلك من توارد الخواطر، لأن عائشة فيما تقول متى كانت تجهل الإنجليزية، وأن هذه القصيدة لم تنقل إلى العربية، وأظنها لم تنقل بعدئذ، ثم تعقب على قولها هذا: «وقد أكون غخطة».

وقد يكون الأمر فيما أرى من باب التأثير والتأثر، ومع أن الشعارين متعاصران إلا أن تنيسون أسبق من عائشة، وربما عرفته عن طريق اللغتين الأخيرين اللتين كانت تبيدهما وتقول الشعر فيها وهما: الفارسية والتركية، وهو أمر لم تقف عنده مئى لأنها لاتعرف أياً من هاتين اللغتين، ولأن الأدب المقارن حين درست عائشة التيمورية وأصدرت عنها كتابها عام ١٩٢٦ لم يكن قد استقر مناهج وعلماء، ولم يكن أحد فى العالم العربى يعرف عنه شيئاً.

وعلى أية حال فقد وازنت مئى بين القصيدتين، ورأت أن قصيدة الشاعر الإنجليزي تتصف «بالانساق التام» وعلى النقيض من ذلك قصيدة الشاعرة المصرية، ومع ذلك تجد العاطفتين تتلامسان فى غير موضع.

تقول فتاة تنيسون مودعة والدتها ساعة الموت:

ادفنوه يا أمّاه فى ظل أشجار الزعرور،
 وزوربنى أحياناً حيث أنا متوارية
 لن أنساك يا أمّاه ، وعندما تمرّين
 سأسمع وقع خطاك على الحشيش الغض اللطيف
 كنتُ شرمة عنيدة إلا أنّك الآن تساعينى ،
 قُبّلينى يا أمّاه : وساعينى قبل أن أمضى
 لا ، لا . لا ينبغي أن تبكى .

وتقول عائشة على لسان توحيدة :

والقبرُ صارَ لغصنِ قَدَى روضةٍ ريجائُها عند المزارِ زهورُ
 وتقول :

أمّاهُ ! قد عزّ اللقاءُ وفى غدٍ سرّينَ نعشى كالعروسِ يسيرُ
 وسينتهى المسعى إلى اللحدِ الذى هو منزلى ، وله الجموعُ تصير
 قولى لربِّ اللحدِ : رفقا بابنتى جاءت عروساً ساقها التقدير
 وتجلدى بإزاء لحدى برهة فتراكِ روحُ راعها المقدور

وتذكر فتاة تيسون حبيبها فتقول :

قولى لروبين كلمة مواساة ، وقولى له ألا يحزن ،
 كثيرات غيرى خيرٌ منى قد يجعلنه سعيداً ،
 لو عشتُ لربّما كنتُ أصير زوجة له ،
 إلا أن جميع هذه الأشياء تلاشت مع رغبتى فى الحياة !

ولا تذكر توحيدة اسما، وإنما تشير إلى الزواج الذي كان قريبا

لولا الموت:

أتماه! قد سلفت لنا أمنيّة يا حسنّها لو ساقها التيسيرُ
كانت كأحلام مضت وتخلّفت مذ بان يومُ البين وهو عسير
عودى إلى ربيع خلا و مآثرٍ قد خملت عنى لها تأثير
صونى جهاز العرس تذكّاراً فلى قد كان منه إلى الزفاف سرور

وكما تطلب فتاة تيسون الصلاة، وتبارك الكاهن الذى أسر إليها
بكلمات الرحمة والسلام فأفهمها عذوبة الغفران، وحبّب إليها الموت
بعد أن كان مخيفاً، وأكد لها أن المسيح الذى «مات لأجلها سيبلغها
السماء» كذلك تطلب توحيدة أن يُزار قبرها، وأن تُتلى الصلوات
على روحها لتحظى برحمة الرب الغفور:

أتماه! لا تنسى بحق بنوتى قبرى لئلا يحزن المقبورُ
ورجاء عفو، أو تلاوة مُنزلٍ فسواك من لى بالحنين يزور
فلعلّما أحظى برحمة خالقٍ هو راحمٌ، برّ بنا، وغفور

الأم عند تيسون لا نسمعنا صوتها أما عائشة فنتعجب، وتعود

فتبكيها:

بنتاه! يا كبدى ولوعة مهجتى قد زال صفو شأنه التكدير
لا توصى ثكلى قد أذاب وتينها حزنك عليك وحسرة وزفير
والله لأسلو التلاوة والدعا ماغرّدت فوق الغصون طيور

كلاً ولا أنسى زفير توجعنى والقَدّ منك لدى الشرى مدثور
 أبكيك حتى نلتقى فى جنّة برياض خلدٍ زَينَها الحور
 وكانت على وعى جيد بأن اللغة الانجليزية لها آداب أربعة :
 الانجليزية، والاسكتلندية، والاييرلندية، والأمريكية، وأن لكل واحد
 من هذه الآداب روحه الخاص ومزاياه، ونقلت عن الإنجليزية رواية
 «اللاجئون» للكاتب الاسكتلندى آرثر كونن دويل، ١٨٥٩ —
 ١٩٣٠، وكان طبيبا وكاتب قصة بوليسية، وغيرت عنوانها فأسمتها
 «الخب فى العذاب»، وهى رواية أدبية تاريخية حدثت فى عهد
 لويس الرابع عشر، ونشرتها عام ١٩١٧، ولكن أحدا لم يوفق فى
 العثور على نسخة منها حتى الآن، كما لم يوفق أحد فى جمع فصول
 رواية كتبها بالإنجليزية ونشرتها فى مجلة «سفانكس» التى كانت
 تصدر فى القاهرة عام ١٩١٧، بعنوان «ظل على الصخر»
 «Shadow on the Roc» وجاء ذلك فى حديث أجراه معها نقولا
 باز، ونشر فى مجلة الفجر البيروتية عام ١٩٢٣.



المصدر الثالث، ولا يقل أهمية عن المصدرين السابقين، هو الأدب
 الإيطالى، وأرجح أنها كانت تعرف الإيطالية بقدر كاف لأن من
 يدرس اللاتينية، ويجيد الفرنسية، لا يحتاج إلى كبير عناء لكى يقرأ
 الإيطالية ويمثل أديها، وأرجح أنها درستها فى مدرسة الراهبات، إذ

كانت الإرساليات الكاثوليكية بعامة تدرس الإيطالية إلى جانب الفرنسية، كما أُلحنا بدءاً، وكانت تقرأ بها أدباً عالياً، فهي تقص علينا في مقال لها بعنوان: «تكلّموا لغتكم»، أنها دخلت مكتبة صغيرة في القاهرة لبيع الكتب الإيطالية، لتشتري منها بعض أعمال جبرائيل دانزنتزو، فإذا بصاحب المكتبة يقدم لها مؤلفاته بالفرنسية، وكان يكتب فيها إبداعه أحياناً ثم يترجمه إلى الإيطالية، فردتها وطلبت منه مؤلفاته الإيطالية الأصلية لا المنقولة، فسألها عما إذا كانت تريدها لنفسها أم لغيرها، فأجابته بل أريدها لنفسى، فسألها: إذن تعرفين الإيطالية، فردت عليه: نعم.

لم يكن جبرائيل دانزنتزو (١٨٦٣ - ١٩٣٨) أديباً إيطالياً عادياً، كان جندياً طياراً ومغارباً، وشاعراً وروائياً، وصاحب أسلوب لامع وجذاب ونال شهرة مستفيضة في النصف الأول من هذا القرن.

وتعرف شاعراً إيطالياً آخر كان معاصراً لجبرائيل، وهو كاردوتشى ١٨٣٦ - ١٩٠٧، تعمقت في أدبه، وتتبع مراحل تطوره، ووصفته في دقة بأنه صاحب موهبة شعرية ونقدية، وأنه كان يزدري شاعرية المرأة، وله فيها رأى صار مضرب المثل: «اثنان عليها ألا يعالجا الشعر: الكاهن المسيحي والمرأة»، ولكنها فيما ترى عدل عن رأيه أخيراً، بعد أن قرأ أشعار إليزابيث براوننج الإنجليزية، وآنى فيفانتى الإيطالية ومدام دييور فالمر الفرنسية.

والعجيب أننا نجد صدى رأى كاردوتشى فى فكر العقاد، ففى دراسة له عن عائشة التيمورية، وجاءت بعد دراسة مى، نجده يقول: «فالمراة قد تحسن كتابة القصص، وقد تحسن التمثيل، وقد تحسن الرقص الفنى من ضروب الفنون الجميلة، ولكنها لا تحسن الشعر، ولما يشتمل تاريخ الدنيا كله بعد على شاعرة عظيمة» ولا أرى العقاد هنا إلا صدى لمتى فلم يكن كاتبنا الكبير يحسن من الإيطالية شيئاً.

وكانت مى فى يذكر توفيق الحكيم فى كتابه «وثائق من كواليس الأدباء» ونشره فى القاهرة عام ١٩٧٧، ويضم ما وجدته عنده من رسائل تلقاها من كبار الكتاب، ووثائق احتفظ بها من الضياع، أول من اكتشف فى رسالة بليغة وجهتها إليه فى ١١/٧/١٩٣٤، بمناسبة صدور مسرحيته أهل الكهف الصلة الفنية والفكرية التى تربطه بالكاتب المسرحى بيرانديللو (١٨٦٧ - ١٩٣٦) ومن أخصب الكتاب الايطاليين إنتاجاً، وحاز جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٤، وظل يعتبر لفترة غير قصيرة مجدد المسرح الغربى بأجمعه، ولعل ماشدها إليه فى هذه الفترة من عمرها، أن حياته كانت كحياتها ملأتها عواصف عائلية مؤلمة.



ثمة أدبان أوريان آخران كان إمامها بها خفيفاً، وهما الأدب الألب الألمانى والأدب الإسمانى.

أما اللغة الألمانية فقد بدأت بتعلمها في القاهرة شتاء عام ١٩١٠-١٩١١، على يد سيدة بروسية، والألمانية ليست طيبة في تعلمها كبقية اللغات الأخرى، ومع ذلك كانت هي عنيذة في دراستها، وربما شدها إلى اللغة الألمانية أنها حفلت على امتداد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بمجهرة من خيرة المستشرقين، وليس من قبيل الصدفة البحث أن الرواية الوحيدة التي اختارت أن تترجمها من الأدب الألماني إلى اللغة العربية، لمستشرق يعرفه دارسو اللغات الشرقية، ومن بينها العربية، وهو مكس هوللر (١٨٢٣-١٩٠٠)، وعرفته هي في سن مبكرة، حتى قبل أن نجيء إلى القاهرة، وقبل أن تعرف الألمانية، ونشرت عنه مقالا في مجلة المقتطف نوفمبر سنة ١٩٠٠.

وفيا بعد، وهي في طريقها لتصطاف في ضهور الشوير بلبنان، صيف عام ١٩١١، وكانت أمضت بضعة شهور في دراسة اللغة الألمانية، حملت معها كتاب «الحب الألماني» لمكس موللر، أوصتها به مدرستها.

وأضيف إلى هذا أنه صادف في أعماقها نفسا ومزاجا رومانسيا من جانب، وأنها بدأت تتمرس بالألمانية عن طريق الترجمة من جانب آخر، ومع أن مفرداتها الألمانية كانت محدودة، وحظها من التعبير بالعربية لما يزل متواضعا، ولم يكن لديها معجم ألماني، كانت تكتفي بأن تحيط بالمعنى العام، ولو فاتها من المفردات كثير، فلما أكملت

الترجمة عادت تقرأه مرات ومرات من جديد، ورأته ليس حبا ألمانيا فحسب، وإنما خلاصة سمات الإنسان وعبراته، فسمته حين نشرته عام ١٩١٢ «دموع وابتسامات».

وقد نقد الكتاب في زمن وجيز نسبيا، ولم تر إعادة طبعه ثانيا، لأنها لم تكن راضية عن الترجمة، فلما تمكنت في الألمانية، وملكتم زمام العربية، أعادت ترجمته، متقيدة بالأصل معنى وتعبيرا، وحاولت إبرازه إلى العربية بصيغته الشعرية البسيطة، خالية من الاستعارات الغريبة، والتميق الشرقي، مما حفلت به الطبعة الأولى، وصدرت هذه الطبعة الثانية عن مطبعة الهلال عام ١٩٢١.

أما علاقتها باللغة الإسبانية، فكانت متواضعة فيما أرى، وكان حظها من الأدب الإسباني كذلك، وقليلًا مانقع في أعمالها على اسم لكاتب أو شاعر إسباني، باستثناء استييان منويل دي فيجاس (١٥٩٥ - ١٦٦٩).

وتقارن خلال دراستها شعر عائشة التيمورية في الغزل والأخلاق والدين وبين مارية تيريسا دي أبله الإسبانية (١٥١٥ - ١٥٨٢) وكانت شاعرة عظيمة، وتقية متصوفة، ونظمت في لغتها الإسبانية إبهالات دينية رائعة، وتورد من شعرها فقرة ترجو الله فيها أن يمن عليها بالموت لتجرد من أثواب التراب، فتراه حينئذ وجهها لوجه، وترجحه هذه الفقرة إلى العربية:

«أحيا دون أن أحيا في نفسى، وانتظر حياة هكذا رفيعة .

حتى إنى أموت لأموت، لأنى لا أموت .

وإنى ليزيد فى كلفى .

أن أرى إلهى لدى سجيننا .

حتى أنى لأموت لأنى لا أموت .

أنظر كيف أذوب شوقا إلى رؤياك، ولا طاقة لى على الحياة بدونك .

حتى أنى لأموت لأنى لا أموت .

فتى يتيسر لى، يا إلهى، أن أقول القول الفصل :

بأنى أموت، لأنى لا أموت» .

ولانلمح أى صدى للأدب الروسى فى كتابتها، ولو عن طريق قراءته فى لغات أخرى، رغم أنها كتبت عن المساواة والإشترابية بألوانها، فابية وثورية، وتعرضت للبلشفية، والثورة الشيوعية، بقدر ما كانت تسمح به القوانين يومها، ربما لأن ما كان رائجا منه على أيامها، ومحببا إلى المثقفين المصريين، هو القصة والرواية، واتسما بالواقعية، وكانت هى مندفعة بطبيعتها إلى نجوانب أخرى من النثر، تتسم بالرومانسية، وتوجه إلى الطبيعة، وتفرق فى الذات، وكل ذلك رغم أنها كانت عالمة الثقافة، وعرضت لعديد من المذاهب والاتجاهات فى السياسة والأدب والنقد والاقتصاد والفلسفة، مما لا يعرفه إلا الباحثون المتمقنون، فهى تعرض للإقطاع وتطوره، وأسباب

نشأته، والفوضوية، والعدمية، وفنون الشعر عند العرب واليونان. وغير ذلك كثير.

ولأود أن أمر عجلا بظاهرة تبينت لى. هى أن متى أهملت تماما ثلاث أوربيات معاصرات لها، وكُنَّ على أيامها، وبعدها، ملء السمع والبصر، فلم تعرض لمن من قريب أو بعيد.

أما أولاهن فهى أنا دى نواى (١٨٧٦ - ١٩٣٣) وكانت شاعرة رقيقة، وأعرف لها ديوانين من الشعر العذب هما: «القلب الذى لاحصار له» والثانى «الانبهارات»، والثانية هى: «مارى بشخير تسيف» (١٨٦٠ - ١٨٨٤)، وكانت كاتبة ورسامة، ودرست فى باريس، وبعد موتها نشرت أسرتها يومياتها العاطفية عام ١٨٩٠، فجاءت وثيقة إنسانية بارزة. والثالثة إميليو باردو بازان (١٨٥٢ - ١٩٢١)، وكانت قصاصة وروائية وناقدة إسبانية ذات شهرة عالمية، وعملت أستاذة للآداب الأوربية ذات الأصل اللاتينى فى جامعة مدريد، واشتهرت بدفاعها الشديد عن قضية المرأة، وترجمت أعمالها إلى عدد كبير من اللغات الأوربية.

ومن الواضح أن لكل منهن صدى فيما كتبت هى، فى رسائلها وحين ركزت على الطبيعة فى التقاط صورها الأدبية، وفيما صاغت من نثر شعرى، ومع ذلك لاتأتى على اسم واحدة منهن أبدا، وأشك كثيرا فى أنها كانت تجهلهن، وربما كانت تغار منهن، ولا يدفع هذا أنها أول من وقفت جدها فى عصرنا الحديث على دراسة شاعرتين

عربيتين محدثتين: عائشة التيمورية وباحثة البادية، لأن في حديثها عنها لونا من الدفاع عن نفسها، وبنات جنسها، قبل أن يكون تعريفا بهاتين الشاعرتين وإنصافا لهما.

يتجلى تأثير الثقافة الأجنبية واضحا عند هـى فى أمرين، أولهما فى اتخاذ أنواع من الأدب استحدثها الرومانسيون فى أوربا، وفى مقدمتها أدب الرسائل وفن السيرة. Biographie، وثانيهما أنها عن طريق العدوى تخلّصت من شوائب الأسلوب العربى فى عصر الاحتضار، فجاءت عبارتها صافية فى الجملة، وإن لم تستطع أن تتخفف كلية من عبء المقدمات، ووصف الطبيعة لأدنى ملاحظة، والاتكاء عليها كثيرا فى التقاط مادة صورها.

ويحمد لها أنها كانت تقرأ لكل كبار الأدباء فى عصرها فى اللغات التى تعرفها، وعن طريقها. ترى كم من أدبائنا ونقادنا وكتابنا اليوم من يعرف التيارات الأدبية السائدة فى الآداب الأخرى، ويقرأ لكبار المبدعين فيها؟.

قلة محدودة مع الأسف الشديد.



وتبقى كلمة، تتصل بتقوم أعمال هـى فى جملتها، ولن يبلغ بنا الإعجاب حد الشاء بلا حساب، ولن يقعد بنا الجحود حد التقليل أو الإنكار، وإنما أراها فى ظروف عصرها، وتمتد من أواخر القرن

الماضى حتى الثلث الأول من هذا القرن ، جديرة بكل ما قيل عنها من ثناء ، وصاغه مواطنوها والمعجبون بها من إعجاب وإطراء ، ولكن حين ننظر إليها الآن ، من أية زاوية شئت ، نجد الزمن تجاوز الفترة برمتها ، وأن عشرات من الفتيات العربيات تجاوزنها ، ويكتبن خيرا من مى ، وإن مئات منهن لسن دونها ، فى الفكر واللغة والأسلوب .